التراث العربي

وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة

للدكتور عبد العزيز بن عبد الله

الحضارة فى مدلولها العام تستلزم طائفة من العناصر ، ابرزها : شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسى وضخامة المقومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والمنعة والوفرة والامن والنظام . والحضارات تقوى وتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصبغة التى تصطبغ بها ، فهنالك حضارات يطغى فيها الجانب المادى على الجانب الروحى اى تسود فيها مظاهر العمران والمدنية الملموسة وتلك سمة يغلب وجودها فى الحضارات الاوربية بخلاف الحضارات الشرقية التى تضم الى جانب هيكلها المادى مجموعة روحية لا تزال الانسانية تستمد منها الى الآن سواء فى ميدان الفلسفة ام الاقتصاد ام الاجتماع وغير خاف ان اقدم الحضارات فى العالم هى الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية وآشورية وكلدانية وفينيقية وفارسية ولهذه الحضارات الاسيوية تراث فكرى ومادى كان ولا يزال من اجل دعائم الحضارة الغربية الآرية واقول مادى لان كثيرا من الاختراعات قد استمدتها الانسانية منذ فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة .

ان من يتتبع مقومات الحضارات الانسانية يلاحظ ظاهرة قديمة وهى امكان رد معظم هذه المقومات الى المدنية الشرقية ففى الفلسفة وفى العلوم وفى الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة فى كتب منها المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على ان كثيرا من مظاهر المدنية التى تبناها عصر الانبعاث فى اوربا ترجع لاعمق العصور ولاعرق المدنيات الشرقية .

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلى وطبقا لمؤثرات تتفاعل فتسبغ بطابع خاص .

فما هى وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالمية ؟ وما هى منزلتها كحضارة اسلامية بالنسبة للحضارات التى توالت على المغرب قبل الفتح الاسلامى ؟ وما هى علاقة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربية فى عدوتى المغرب والاندلس ؟

ان العرب لما فتحوا افريقية والمغرب وجدوا للحضارات العالمية ؟ وما هى منزلتها كحضارة اسلامية الامم التى تنازعت السلطة فى المغرب قبل دخول الاسلام اليه والحضارة القرطاجية قد قضى عليها طغيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاج واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على انقاضها شيئا جديدا ما لبث الوندال ان استأصلوه بدورهم ولكن لم يلبثوا فى المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم ما ارتكبوه هم فى الرومان وما ارتكبه الرومان فى القرطاجنيين وقد ذكر المؤرخون انه لم تمض ستة اشهر على انتصاب الروم حتى عفوا على آثار الوندال بالبلاد وخرج المغرب من سلسلة الاحتلالات الاجنبية صفر اليد خاوى الوفاض منهوك القوى ووجد سكان البلاد — وهم البربر — انفسهم كما كانوا اول مرة بدائيين فى حضارتهم وقد اكد الاستاذ الفريد بيل Alfred Bel فى كتابه (ديانة الاسلام فى بلاد البربر) (ص 64) ان مما لوحظ كون لغة القرطاجنيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الرومانى والقرطاجنى — قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور وان البربر عادوا الى استعمال لغتهم والى اساليبهم الوحشية مما يدلنا على انهم لم يستفيدوا قلامة ظفر من حضارة قرطاج ولا روما . ولعل الاستاذ بيل نسى ان يقول بأن الشىء الذى ظل متغلغلا فى روح البرابرة هو اللغة البونية التى كانت قريبة من العربية والتى امتد اشعاعها على يد الكنعانيين العرب بين ابناء البربر من قرطاج الى قابس ومن طنجة الى بجاية .

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الاجنبية ؟ ام كانوا مغمورين فى بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الاجانب ؟ يجب ان نعلم قبل كل شىء ان البربر اسيويون لا افارقة وانهم هاجروا من آسيا الى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبية وجاء برابرة الاطلس المغربى على الخصوص من ربوع الشام حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع ابناء عمهم العرب الكنعانيين فالحضارة البربرية حضارة اسيوية بدائية ترتكز على الزراعة والرعى وقد وصف لنا مؤرخون اجانب التجانس الذى كان ملحوظا بين عادات العرب والبربر والذى كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية وقد اخترع البربر احرفا هجائية فى الوقت الذى اخترع الكنعانيون احرفا خاصة بهم ، والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين الى يومنا هذا . وعند ما انكشف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب انساق البربر فى تيار حضارتهم الشرقية الاصلية التى تتبلور فيها مثل عليا ملكت منهم المشاعر وتغلغلت فى الاعماق حيث كانوا — كالعرب — يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب كما قال سديو Sédillot (ميول وعواطف واحدة ومبادىء متشاكلة كحب الفخر والهيام بالحرية واكرام الضيف) .

وقد وجد البربر انفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بني عمومتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة فامتزج العنصران ولم يزد توالى القرون هذا التمازج الا قوة فتكونت مع الزمان مدنية مغربية مزدوجة القوام انصهر فى بوتقتها تراثان كلاهما شرقى الاصل طبعه الاسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص

وهنا تظهر حيوية الاسلام فى افريقيا الشمالية وخاصة تلك الحيوية التى اقر بها الفريدبيل كما اقر بها قبله وبعده مستشرقون منصفون ، فالاسلام هو الذى استطاع وحده ان يخلق فى هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر بعد ما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية رغم سموهما واعنى بالحضارة الحق حضارة ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الامة واكتمال مقوماتها وتوفر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة ترابها وتراثها وهذا الشىء قد اوجده الاسلام الذى انضوى المغرب تحت رايته طوال اربعة عشر قرنا .

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والاسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة وتطورت بجانبها حضارة اخرى — هى حضارة الاندلس — استمدت روحها من تراث الشرق الذى نقله الفاتحون والمهاجرون واضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك الروح جلبابا لم تكن لحمته ولا سداه ليمتد الى الاعماق حيث ظلت السيطرة للروح الشرقية وحدها .

ان للوضعية الجغرافية بعض الاثر فى تكييف العقلية نوعا ما ثم الانتاج الفكرى ثم مظاهر الحضارة ومع ذلك فقد ظلت الحضارتان الاندلسية والمغربية شرقيتين بعد ان تفاعلتا نحوا من ثلاثة قرون اى منذ عهد المرابطين الى عهد المرينيين تحت اشراف عاصمتى مراكش وفاس .

والثقافة الشرقية هى المنوال الذى حاك عليه رجال الفكر المغاربة منذ صدر الاسلام ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقى والمغربى اسلوبا ونزعة وروحا لاحظ وحدة الجوهر ادبا وفلسفة واجتماعا مع فروق سطحية مرجعها الى مقتضيات اللون المحلى .

فالحضارة المغربية شرقية بدءا ونهاية ليس فيها اى اثر يذكر للحضارة اللاتينية التى قدر لها ان تمر مر السحاب فى هذه البلاد .

والحضارة الاندلسية حضارة مغربية صميمة اى شرقية المبنى عربية المعنى وقد تناولت عواصم العدوتين وبالاخص مدينتى فاس وقرطبة مع عواصم الشرق فى حمل راية الحضارة العربية الاسلامية فى العالم ايام كان الجهل رابضا بكلكله الثقيل على اوربا فكانت فاس مركزا للاشعاع الفكرى والروحى يستمد من نبراسه الاروبيون كما هو معلوم عند من له ادنى الم بتاريخ الحضارات .

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل فى كثير من مقوماته الا بمساهمة المغاربة فى بناء صرحه كالشريف الادريسى (استاذ اوربا) بجغرافيته وابن بطوطة برحلاته وابن خلدون باجتماعياته والحاتمى باشراقاته وابن رشد بفلسفتهوفقهه وطبه وابن الخطيببأدبياته ونكاته (التى يبذ بها الجاحظ فى كثير من الاحيان) وابن حزم بتنسيقاته الفلسفية والدينية وابن طفيل بنظرياته فى الفلسفة الفطرية .

فنحن معشر المغاربة بعنصرينا امة عربية المحتد شرقية الروح اسلامية العقيدة وحضارتنا حضارة شرقية عربية اسلامية فى جوهرها ومقوماتها .

وهى حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التى تتكون الحضارة من بعضها فضلا عن مجموعها .

وقد عاش المغرب والاندلس متحدين نحوا من ثلاثة قرون (من عهد المرابطين الى اوائل عهد المرينيين) وتم الانصهار والتمازج بين العنصرين اللذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من اواصر التزاور والمبادلة فكانت الوفود الاندلسية تترى على مراكش عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية فى عهد المرينيين وكان افراد الشعب المغربى الذين يهبون بين الفينة والفينة لانجاد اخوانهم سكان العدوة الشمالية يتصلون بالعناصر الاندلسية ويقتبسون منها فكريا واجتماعيا واستمر الاحتكاك عن طريق رجال مشهورين خلال القرنين الخامس والسادس حيث ظهر فلاسفة واطباء افذاذ كابن طفيل وابن رشد وبنى زهر ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجرى الذى شهد سقوط معظم العواصم الاندلسية فى قبضة الاسبان حتى تضخمت حركة الهجرة فكان لذلك اثره الفعال فى حياة المغربالناعمة وقد توالى سيل المهاجرين الاندلسيين ايام السعديين فنقلوا معهم نماذج الحضارة الاندلسية التى طبعت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية وعند ما وقع النفى العام بالاندلس غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية كفاس وتطاون وسلا بطماء وشعراء وفنانين وتجار وارباب حرف ساهموا فعليا فى صهر الحضارتين صهرا طبعهما منذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تعذر معه رد كل منهما الى ينبوعه فى كثير من الاحايين .

وقد ابرز الدكتور رينو Reinaud فى كتابه الطب القديم بالمغرب (نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72) « امتزاج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين » فما هى اذن هذه العناصر الخالدة التى بلورت حضارة المغرب والتى لا تزال فى روحها ومبناها كفيلة بدعم كل تطور عربى فى العصر الحديث ؟

فمن ابرز مظاهر تراثنا الفكرى والحضارى الصالحة لنهضة عربية حديثة تلك العناصر الاساسية للمنهجية العلمية والتقنية التى ارتكز عليها الانبعاث فى اوربا بعد عصر النهضة وانطواء العصور الوسطى التى ظلت قرابة الف عام الاطار الزمنى لازدهار الحضارة العربية فى مختلف مجاليها الانسانية فقد برهن العرب

طوال قرون عن اصالة نادره وعن روح خلاقة وعن استعداد للتكيف فأبدعوا منهجا تجريبيا رصينا لم يكن للانسانية عهد به وطوروا الاختصاص التقنى وحرروا الفكر وعززوا شمولية الكشف العلمى بربط الماضى بالحاضر ودعم التبادل بين الشرق والغرب فى تسامح وموضوعية وانكار للذات وتطلع عارم الى التضلع من اللغات واستكناه مختلف الاتجاهات والنظريات والمذاهب والنظم والعادات لدى الامم والشعوب تفتيقا للفكر وتوسيعا للافق وبذلك شادوا بنيانا شامخا ما زال الى الآن موئلا ومنبعا للفكر الانسانى النزيه .

فلنستعرض اذن الوانا من الكشوف المغربية فى مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها ثم بعض المجالى الاجتماعية والاقتصادية والفنية لنستشف مدى اسهام المغرب الاقصى فى دعم الكيان العربى الاسلامى خاصة والانسانى عامة — فكرا وحضارة — بعناصر لا تزال غضة فى منهجيتها وقوامها .

كان القرن الرابع فى الاندلس هو عصر النهضة تفتق فيه الفكر العربى سواء من حيث دراسة الفنون والتقنيات ام من حيث الاختراعات والكشوف العلمية (1) وهكذا برز ابن جلجل كأعظم طبيب طبائعى فى عصره عرب «مفردات ديسقوريدس» وزاد عليها الادوية التى جهلها والتى كانت معروفة عند العرب كما برز ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوى صاحب كتاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » الذى كان اعظم ممثل لفن الجراحة فى المدرسة العربية (2) اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفى الجراحة فى القرون الوسطى وكتابه يعد اللبنة الاولى فى هذا العلم اذ هو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصى المثانة واستخرجها بتشريح جراحى وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير فى رتق الجراحات والظاهرة التى امتاز بها هذا الكتاب هو روحه التجريبية وتركيز النصوص على آلات اثبت صورها فى كتاب هو اول تعبير للجراحة كعلم (3) ويرى لوكلير (4) ان المغرب كان اشد اقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية يشهد بذلك — حسب القفطى (5) عدد الاطباء والصيادلة المغاربة الذين رافقوا المعز الفاطمى الى مصر .

وكانت بفاس فى القرن الرابع « مدرسة طبية (6) كما كان البرابرة قبل هذا العصر يستعملون الحقن بجراثيم الجدرى لضمان حصانة المصاب (7) على ان القرنين الخامس والسادس قد عرفا فى المغرب الاقصى تحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل — كما قال لوكلير (8) تشهد بذلك رعاية البلاط المراكشى لامثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبنى زهر وقد اتصل بهذا الفن علم الصيدلة وعلم العقاقير والفلاحة حيث يعتبر كتاب ابن العوام ابى زكرياء يحيى بن محمد عديم النظير فى الادب العربى (9) « لما يحتوى عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة وثمينة » بل هو اعظم ما انتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة « وقد كان الشريف الادريسى السبتى من هذا الطراز فطاف فى آسيا واوربا ووصف نباتات كل قطر وصفا اصيلا (10) وكتابه فى الادوية ملىء بالملاحظات

---

1) لوكلير ـ تاريخ الطب العربى ج 2 ص 350
2) لوكلير ج 1 ص 334
3) لوكلير ج 1 ص 456 ويوجد فى المكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد 1427 د جزء من هذا الكتاب يحتوى على 28 صورة للمكاوى وآلات التشريح .
4) ج 1 ص 407
(5) « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » ص 85 .
6) « شهيرات نساء المغرب » للكانونى (مخطوط) نقلا عن « فن الاسنان بالمغرب الاقصى » لكاتب اوربى لم نستبن اسمه فى المخطوطة .
7) كودار — وصف المغرب وتاريخه ج 1 ص 239
8) ج 2 ص 72 .
9) ج 2 ص 11 و 110
10) الاعلام للمراكشى ج 3 ص 34

الشخصية اقتبس منه ابن البيطار فى مائتى موضع من كتابه فى الاعشاب (لوكلير ج 2 ص 8) واعتمد عليه وحده فى ثلاثين موضعا (ص 68) كما اعتمده استاذ ابن البيطار ابو العباس النبطى وهو مع تلميذه ابرز العلماء النباتيين العرب الذين لم ينجب الشرق من يضاهيهم فى هذه الآونة عدا فخر الدين الرازى وقد استطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه — كما يقول لوكلير (11) — ان يحمل راية الفلسفة والطب فى العالم الاسلامى وبفضل هذا الانبعاث العربى فى الاندلس صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود واصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتينى واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية فنقل جيرار دوكريمون وحده من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا او اغريقيا معربا على ان حركة الترجمة بدأت فى المغرب العربى منذ القرن الرابع فهذا قسطنطين التونسى الصقلى قد اسس مدرسة سالرنا وهى اول مدرسة من نوعها فى اوربا كانت مبعث انوار الطب الحديث فى العالم الغربى شارك فى التدريس بها الطبيب يونس العربى الفاسى (اللسان العربى ج 5 — بحث الدكتور احمد مكى) وقد ولد عام 400 بتونس (وتوفى عام 475 هـ) وظلت المخطوطات الطبية العربية التى حملها الى سالرنة غذاء اوربا عدة قرون وقد ترجم للاتينية اهم كتب الطب العربى كزاد المسافر لابن الجزار وكتب للرازى واسحق بن سليمان الاسرائيلى والف نحوا من اربعة وعشرين كتابا منها « قانون الطب » فى اثنى عشر مجلدا وفياتيكوم (12) فى الطب العام فى سبعة اجزاء .

ونبغ فى الشرق العربى فى هذا العصر علماء افذاذ تساوقت ابتكاراتهم مع زملائهم فى الغرب منهم السويدى صاحب « التذكرة » المتوفى عام 691 هـ وابن ابى اصيبعة وجمال الدين القفطى على بن يوسف المصرى (646 هـ) وعبد اللطيف البغدادى (629 هـ) (حيث امتاز فى وصف اعشاب مصر) وابن النفيس المصرى (687 هـ) الذى كان اعظم اطباء عصره ولعل مما ساعد على تطور الطب وما اتصل به من علوم سهر المنصور الموحدى على مصالح الاطباء وتنظيمه لمهنة الطب وقد سبقه الى ذلك الخليفة المقتدر الذى فرض على الاطباء تأدية امتحان تقنى فبلغ عدد المتخرجين ببغداد عام 319 هـ ثمانمائةوستين طبيبا (13) وقد اجرى اول امتحان للصيادلة ايام المعتصم عام 221 هـ .

وكانت التجربة هى الطريقة العادية عند الاطباء حيث ظهر كتاب التذكرة لابى العلاء زهر بن زهر الاندلسى الذى كان والده ابو مروان عبد الملك بن ابى بكر رئيس الطب ببغداد ثم بمصر والقيروان (14) وهو كتاب ترجم الى الفرنسية عام 1911 م بعد ان تعددت ترجماته عشر مرات بين 1490 و 1554 م) كمجموعة من الملاحظات سجلها ابو العلاء لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة فى مراكش وبالادوية

---

11) ج 2 ص 72 وقد اعتمد ابن البيطار ايضا على عبد الله بن محمد بن صالح الكتامى الحريرى الشجار الذى كانت له حانوت بمراكش عام عام 583 هـ (اللسان العربى ج 6 ص 1968)
اما النبطى فهو احمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية او ابن العشاب ولد باشبيلية عام 561 هـ) ودرس الاعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وقد رحل الى الشرق عام 613 هـ او 614 هـ بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب وصنف معجما للحشائش وفاق اهل زمانه فى معرفة النبات وتوفى باشبيلية عام 638 هـ (نفح الطيب ج 2 ص 635) وذكر لوكلير بصدد ابن البيطار (ج 2 ص 225) انه اعظم نباتيى العرب وقد تنقل فى جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الاعشاب وخلف لنا اعظم مجموعة فى العلوم الطبيعية وقد عينه الملك الافضل فى مصر رئيس عشابى القاهرة وقيل رئيس اطباء مصر (النفح ج 2 ص 683) وكتابه « جامع المفردات » اكمل ما صنفه العرب فى الطب يحتوى على الفى وصفة للعقاقير ترجمه لوكلير الى الفرنسيةوقد كان النبطى — حسب احاطة ابن الخطيب اماما فى الحديث حافظا ناقدا .
12) او (Viatique) ومعناه زاد المسافر
13) القفطى ص 130
14) نفح الطيب للمقرى ج 1 ص 445

المناسبة لها ولابى العلاء ايضا « مجربات » طبية جمعت بمراكش عام 526 هـ يوجد مخطوط لها فى الاسكوريال (رقم 844) ولعل ولده ابن زهر ابا مروان عبد الملك مؤلف كتابى « الاقتصاد » و « التيسير » قد بذ سابقيه حيث اعتبر اعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازى فى الشرق (15) وكان لا يعالج الا بعد الفحص الدقيق وجس النبض والنظر الى قوارير البول لتحليله وقد نهج ابن زهر خاصة فى كتاب « التيسير » اسلوبا جديدا فى الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلى للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة يصف الدواء على غرار اطباء عصرنا ويباشر الصيدلة لتجربة الادوية بنفسه ولذلك توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية فى البلاط المراكشى الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله كالامراض الرئوية (التى منها تشريح القصبة فى مرض الذبحة) وكذلك التخصص فى الجهاز الهضمى حيث استعمل الانابيب المجوفة لتغذية المصابين بعسر البلع والحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة الجرب وارتكز على الطبيعة لعلاج الادواء (16) وكان سر نجاحه هو تشبعه بروح العصر الحديث حيث كان يتسم مثلا بنكران الذات فينسى نفسه ويستغرق فى مريضه وقد عرضت عليه حالات خطيرة حاول ان يعيشها مستمدا من ذكرياته وتجاربه ومنطقه وقد ابرز كودار (17) Godard هذه الميزة عند ابن زهر فاكد انه استعاض بالمنهج التجريبى والطريقة العقلية عن التقليد فى ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهى الصيدلة والجراحة والطب العام ولعل من النقص الملحوظ فى عصرنا الحاضر تباعد هذه العناصر المتزايد بعضها عن بعض اما الحفيد ابو بكر بن ابى مروان (596هـ) فقد اضاف الى تضلعه فى الطب مشاركته فى العلوم الاسلامية حيث كان محدثا يحفظ صحيح البخارى بأسانيده (18) ولم يكن فى زمانه اعلم منه باللغة وكان شاعرا يحفظ ديوان ذى الرمة وهو ثلثلغة العرب(19) وظاهرة المشاركة هذه توفرت فى كثير من الاطباء كأبى جعفر بن هارون الترجالى تلميذ ابى بكر المعافرى فى علم الحديث والمتخصص فى طب العيون وابى يحيى هانىء بن الحسن اللخمى الغرناطى المشارك فى الحديث والاصول والطب الذى (20) تتلمذ لابن فرتون بفاس ومن الاطباء الذين كان لهم باع طويل فى التجارب العلمية الوزير ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة شيخ ابن رشد المتوفى بفاس عام 533 هـ (21) وقد تعاون معه تلميذه ابو الحسن سفيان الاندلسى المتوفى عام 537 هـ فى تأليف كتاب التجربتين (22) على ان ابن رشد نفسه ضرب اروع مثل فى المنهجية التجريبية فاقترح فى شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء فى الامراض الرئوية مشيرا الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (23) وابن رشد هو اول من اشار الى الدورة الدموية الكبرى وعللها فى كتابه « الكليات » الذى استمد منه ويليام هارفى (William Harvey) معظم نظرياته وقد سبقه ابن النفيس المصرى الى الكشف عن الدورة الدموية الصغرى او الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (24) .

وهذه الروح العلمية الفياضة هى التى تمخض عنها ما اشار اليه مؤرخ فرنسى من الد اعداء العرب هو رونان (Renan) فى كتابه Averroès et

---

15) ذكر ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » ان ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من اهل عصره .
16) حضارة العرب ــ كوستاف لوبون ــ الطبعة الفرنسية ص 530 .
17) تاريخ المغرب ص 452 .
18) الاتيس المطرب ج 2 ص 180
19) المطرب لابن دحية
20) ابن ابى اصيبعة ج 2 ص 75
21) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 335 .
22) ابن ابى اصيبعة ج 2 ص 63 والقفطى ص
23) لوكلير ج 2 ص 79
24) حضارة العرب ص 531 (الطبعة الفرنسية)

«l'Averroïsme»(ابن رشد ومذهبه) من اعتراف كريسطوف كولومب فى رسالة تركها بعد موته بأن الذى اوحى اليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربى فى كتابه « الكليات » على ان مجلة « نيوزيك » الامريكية اكدت (فى عدد ابريل 1960) ان العرب انطلقوا قبل سنة 1100 م (اى قبل كريسطوف كولومب بأربعة قرون) من ميناء الدار البيضاء بالمغرب الاقصى فرسوا فى عدة مواضع على الساحل الامريكى واكد هذه النظرية كثير من العلماء (25) .

اما المارستانات وهى المستشفيات والمصحات فقد وصف عبد الواحد المراكشى (26) الذى عاش فى بغداد ــ المستشفى الموحدى قائلا :

« وبنى اى المنصور الموحدى بمراكش بيمارستانا ما اظن ان فى الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المثمومات والمأكولات واجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك فى وسط احداها رخام ابيض ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت واجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية واقام فيه الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وان كان غنيا دفع له ماله .. ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت وكان فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى .. ولم يزل مستمرا على هذا الى ان مات .

وذكر ميليى (فى كتابه الموحدون) المؤلف عام 1923 ص 129 ان هذا المستشفى « لا يخلف وراءه مصحات اوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس » .

ولا بدع اذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبةلاوربا فقد قال ولتر فىمختصر التاريخ: « ازدهر علم الطب والتداوى عند العرب على حين كان الاوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون اربابه اذ ان الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوى فى زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقى التى كان يبيعها رجال الدين» الى ان قال : وكان الاوربيون يستنكفون من النظافة لانها تشبه الوضوء عند المسلمين » .

وقد كان الاوربيون يضطرون الى اللجوء للمستشفيات العربية فهذا الملك شانجه توجه الى قرطبة من اجل العلاج من مرض الاستسقاء (لوكلير ج 2 ص 351) .

وبدأ افول الحركة الفكرية فى المغرب آخر الدولة المرينية بعد سقوط غرناطة اواخر القرن العاشر الهجرى وردود فعل الاسبان الانتقامية (Reconquista) فلم ينبغ فى البحث العلمى عدا رجال قلائل امثال الوزير الغسانى مؤلف كتاب « حديقة الازهار » الذى نشر عنه الدكتور رينو (27) دراسة اكد فيها ان هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا فى الوصف النباتى الذى يتسم غالبا بطابع الاصالة والطرافة مع محاولة مفيدة لترتيب ثلاثى يدخل عنصرا جديدا فى وصف اعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية وقد ظل المغرب مع ذلك خلال العصور الاخيرة من تاريخه ــ بالرغم عن احتلال البرتغال والاسبان لبعض مراسيه ومحاولة تدخل الاتراك فى شؤونه ــ يواصل منهجه التجريبى على نطاق ضيق حيث ظهرت اساليب (28) لمعالجة انواع الرمد وتشريح العين لازالة غشاوتها وتخدير

---

25) نشرة المعهد المصرى 26 عام 1934 ــ بحث بقلم ماكس ما يرهوب ص 33 وقد اشار ابن النفيس الى ذلك فى « الكتاب الشامل فى الطب » الذى كان يحتوى على ثلاثمائة مجلد اهدى منها المؤلف ثمانين مجلدا لمستشفى قلاوون .

26) راجع الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ص 13

27) المعجب ص 177 ــ كتاب ميليى (Les Almohades - millet) ــ 1923 ص 129

28) نشرة معهد الدروس المغربية العليا ج 18 ص 195

المرضى قبل العمليات الجراحية واستخدام وسائل الايحاء والتنويم مع المهارة فى طب الاسنان وقد اعطانا الطبيب احمد بن حمدون بن الحاج (29) المتوفى عام 1316 هـ (30) للمرة الاولى فى تاريخ المغرب تقسيما فنيا للادوية كما صنف الشريف العلمى السذى درس بالاسبطالية الكبرى بالقاهرة عام 1291 هـ كتاب « ضياء النبراس فى حل مفردات الانطاكى بلغة اهل فاس » (طبع عام 1318 هـ) يحتوى على مفردات بربرية ولاتينية وافرنجية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية مع تخليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيد والتقطير ووصف العمليات العلمية وهو كتاب متين التحليل يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الطب المغربى .

ولنضرب الآن مثلا آخر بشعبة من العلوم هى الرياضيات فقد كان العرب اساتذة النهضة الاوربية فى الحساب (31) وقد فند سيديو (Sédillot) (32) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرا الى ما ابدعه الفكر العربى فى هذا المجال مثل ادراج الخطوط المماسة للدائرة (tangentes) فى الحسابات والاستعاضة عن الاساليب العتيقة بحلول مبسطة اصبحت اساسا فى علم حساب المثلثات الحديث (trigonométrie)

وقد لاحظ العالم شال (Chasles) انه كان للعرب فضل التفكير فى تطبيق الجبر على الهندسة وتاكد ذلك بعد ان نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمى منذ عام 1836 م من طرف روزن (Rosen) ومن بينها بحث فى الجبر حلت مشاكله فى المعادلات الثلاثية بطريق هندسية ويقا لبان الخوارزمى هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية (équation de 2e degré)

وان الذى حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر بن ابراهيم (33) ولعل لفظتى الغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمى الذى يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش فى عصر المأمون العباسى ونقلت كتبه فى الجبر والمقابلة الى اللاتينية وقد ابدع العرب فى علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها فى علم الفلك .

واسهم الغرب الاسلامى اى المغرب الكبير والاندلس فى بلورة هذا الاشعاع العلمى العربى فظهر ابن حمزة المغربى فى القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة فى اللغريتم ، واشتهر فى الاندلس ابو عبيدة مسلم بن احمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة وابو القاسم اصبغ بن السمح (له تآليف منها المدخل الى الهندسة فى تفسير اقليدس وكتاب كبير فى الهندسة) وابو القاسم بن الصفار وابو الحسن الزهراوى (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف فى المعاملات) وابو الحكم عمر الكرمانى (من الراسخين فى العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصرفا فى الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابو الحسن مختار الرعينى (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن احمد السرقسطى (ناقد فى الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع فى العدد والهندسة) وابو حى القرطبى (بصير بالهندسة رحل الى مصر عام 442 هـ) وابو الوقشى الطليطلى (الهندسة) (النفح ج 2 ص 874) .

وقد احصينا فى «معجم الرياضيين بالمغرب الاقصى» الذى نشرناه عام 1385 هـ — 1965 م فى مجلة « اللسان العربى » (العدد الثالث ص 134) نحوا من مائة وثلاثين من المهندسين والرياضيين وعلماء الهيئة المغاربة الذين برزوا فى هذا القطاع العلمى الهام وخلفوا لنا تراثا رائعا اسهموا به فى دعم صرح الحضاره والبحث العلمى فى العالم ومن بين هؤلاء :

1 — المهندس الحاج يعيش الذى بنى لعبد المومن ابن على الموحدى مقصورة وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتنخفض لدخوله .

2 — المهندس عبيد الله بن يونس الذى استخرج مياه السقى بصنعة هندسية (35) .

29) راجع كتابنا « تاريخ الطب والاطباء بالمغرب » 1380 — 1960 ص 72
30) رينو ص 8
31) الاعلام للمراكشى ج 2 ص 246
32) كوتيى (Gautier) فى كتابه عادات المسلمين واعرافهم ص 238 .
33) تاريخ الطب العربى — لوكلير ج 1 ص 320
34) حاضر العالم الاسلامى ج 1 ص 151 .
35) نزهة المشتاق للادريسى ص 67 من الجزء المطبوع حول افريقية والاندلس .

3 ــ ابن الياسمين الذى ولد بفاس اواسط القرن السادس والخبير فى الجبر والمقابلة .

4 ــ المهندس المعمارى ابو عمران موسى بن حسن بن ابى شامة مصمم بعض الاجنحة فى جامعة القرويين عام 599 هـ .

5 ــ ابن البنا المراكشى (المتوفى عام 721 هـ) صاحب مقدمة اقليدس ومختصر الفلاحة والاصول فى الجبر والمقابلة وتلخيص فى الحساب شرحه ابن المجدى احمد بن رجب بن طنبغا القاهرى عام 850 هـ واختصره ابن الهاشم القرافى المتوفى عام 815 هـ .

6 ــ على اليفرنى المكناسى (734 هـ) وهو امام الرياضيات فى عصره (36) .

7 ــ على بن احمد التلمسانى صانع منجانة المدرسة العنانية بفاس عام 758 هـ (37) .

8 ــ امير المؤمنين فى الحساب ابراهيم المصمودى 912 هـ (38) .

9 ــ الفلكى احمد الغزانى الفاسى (39) 920 هـ .

10 ــ محمد بن هلال امام التعاليم فى سبتة وشارح المجسطى فى الهيئة (949 هـ) .

11 ــ ابن مشون محمد بن يوسف السبتى صاحب الرجز فى الجبر والمقابلة (40) عام (989 هـ) .

12 ــ السلطان احمد المنصور الذهبى الذى كان يفك كل يوم شكلا من كتاب اقليدس (41) .

13 ــ شيخ جماعة الفنون بمراكش احمد التقليتى الاختصاصى فى الرياضيات والمساحات والهندسة وهو من رجال القرن الحادى عشر .

14 ــ محمد بن محمد بن سليمان الرودانى الفاسى (1094 هـ) الخبير الاوحد فى الرياضيات والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمساحة وقد عاش فى بغداد فذاع صيته واخترع آلة فلكية وصفها صاحب نشر المثانى (ص 87) .

15 ــ المنجم الرياضى محمد المسناوى مرينو (1207 هـ) صاحب كتاب « تقدير قرض النفقات » فى علم الاقتصاد الرياضى .

16 ــ الاستاذ المعطى مرينو (1223 هـ) صاحب كتاب « كنز الاسرار فى تعديل الكواكب » وكتاب ابعاد النيرات ورصده وكتاب المزاول .

17 ــ احمد بن عبد الله التنسانى الصويرى (1320 هـ) صاحب المؤلفات العديدة فى الجبر والمقابلة واللوغاريتم والذى حل اشكالا هندسية نقلها الى الرياضيات وكان رئيس الرياضيين والمهندسين ورئيس المدفعية فى الجيش المغربى .

واذا اعتبرنا شعبة اخرى من العلوم التطبيقية كعلم الجغرافيا نلاحظ ان الخرائط العربية الاولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس وظل العالم طوال الف عام عالة على هذا الجغرافى والفلكى اليونانى الذى هو من رجال القرن الثانى الميلادى حتى ظهر الشريف الادريسى الذى وصفه كوتيى (42) بانه استاذ اوربا فى الجغرافية حيث ظل الغربيون يستمدون ازيد من ثلاثة قرون من خريطته العالمية فكان اطول باعا من بطليموس واكثر دقة فى ملاحظاته وتقريراته لان بطليموس احصيت عليه فى تقديره للمسافة الفاصلة بين طنجة والاسكندرية وحدها اغلاط بلغت ثمان عشرة درجة طولية بينما تقل اغلاط تقديرات الادريسى للاطوال ما بين طنجة وطرابلس الغرب عن درجة واحدة وقد نبه الادريسى على هذه

---

36) درة الحجال ص 441
37) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 31
38) درة الحجال ص 107 وسلوة الانفاس (ج 2 ص 4) .
39) درة الحجال ص 91
40) الاعلام للمراكشى ج 3 ص 263
41) درة الحجال ص 176 + الدرة ص 51
42) فى كتابه عادلت واعراف المسلمين عند ما تعرض لـه .

الاغلاط ومعلوم ان الاقتصاد فى كل امة يعد قواما جوهريا فى تطورها الحيوى وقد اسهم العامل الاقتصادى فى بلورة الحضارة المغربية منذ فجر الاسلام فالامة المغربية قد استقبلت الفاتح العربى كمحرر لا سيما وان العرب حملوا معهم الى افريقيا كما يقول كوتيى « حكومة نظامية مجهزة بجميع المقومات العسكرية والادارية » فكان فى ذلك الخلاص من جبايات مرهقة فرضها الرومان الذين احالوا الشمال الافريقى الى « مخزن محصولات » لامداد روما فكان الامبراطور الرومانى نفسه اكبر ملاك عقارى فى المغرب الكبير ومنذ اواخر القرن الثانى الهجرى انطلق الاقتصاد المغربى من عقاله فانتظم واصبح « منطقيا قارا » — كما وصفه المؤرخ طيراس فى تاريخ المغرب وامست عاصمته الادريسية فاس مركزا اقتصاديا ومكريا رسم الخطوط الاولى للوحدة القومية والتخفيف من عوامل الانفصالية والتشتت القبلى لا سيما بعد ان تجمعت فى العاصمة الجديدة ثمانمائة عائلة اندلسية هاجرت اليها (عام 202 هـ — 818 م) بعد وقعة الربض وقبلها ثلاثمائة اسرة قيروانية (198 هـ) وقد شاهد المغرب اول عملة وطنية مستقلة عام 185 هـ حيث تبلور الاشعاع الحضارى باستقرار اقوى (حتى فى الصحراء) وتصاعد العمران وانبثاق مدة جديدة وتعززت الفلاحة التى كانت محور الاقتصاد باعمال الرى الكبرى وازدهرت الحركة التجارية فكانت سجلماسة الصحراوية مركزا للقوافل بين المغرب والبصره وبغداد وكانت الظاهرة الاساسية التى اتسم بها هذا العصر هى الطمأنينة والامن مما شجع ظهور البوادر الاولى لانتشار الضيع الزراعية وما لبث هذا الاقتصاد ان تكيف فاتسعت مصادره وموارده باتحاد الاندلس والمغرب وهكذا فعند ما كشف عباس ابن فرناس الاندلسى وهو اول طيار عربى بالاضافة الى الجوهرى استخدم آلة لامتطاء الاثير — طريقة جديدة لصنع الزجاج من الحجر تكونت آنذاك مجموعة من الصناعات سبقت البندقية الى كثير من الكشوف وعمرت العالم باصناف المنجزات من اقداح وعلب وانابيب وآوان كيماوية وكانت المصانع تنفخ الزجاج وتفرغه وتنحته وتعزز بذلك فن الترصيع فى دمشق والزجاج البلورى الرقيق الذى سبقت به مصر صناعات بروسيا وتشيكوسلوفاكيا اوائل هذا القرن

وقد جعل الموحدون — كما يقول اندرى جوليان فى تاريخ افريقيا الشمالية — حدا للفوضى المالية التى كان يتخبط فيها ملوك الطوائف فظهر عنصر جديد هو التصنيع واصبحت سبتة مركزا دوليا لانتاج الورق يضاهيه جودة ورق شاطبة فى الاندلس وسامرا فى العراق وكانت هذه المراكز تمد اوربا الشرقية والغربية وقد عثر المستشرق كازيرى فى الاسكوريال على مخطوط عربى من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام 1009 م (وهو هذا العصر بالذات) يدل على ان الورق المقصود كان من القطن وقد سبق المغرب اوربا الى صنعه ومعلوم ان العرب اول من صنع الكاغد من الخرق البالية (لوبون — حضارة العرب — ص 519) وقد اصبحت فى فاس وحدها ايام الموحدين 3094 مصنعا للنسيج و 47 للصابون و 12 لتسبيك الحديد والنحاس واحد عشر معملا للزجاج واربعمائة لصنع الورق او الكاغد (43) علاوة على الثروة المعدنية التى اتخذت موادها الاولية من حديد ونحاس وفضة وتوتيا وغيرها منطلقا لسلسلة مصانع انتشرت بسرعة فى حواضر المغرب وبواديه بالاضافة الى مصانع السكر فازدهرت المبادلات بين المغرب ودول اوربا وخاصة موانىء بيزة وجنوة والبندقية ومرسيلية وكان المسلمون آنذاك هم اول من نظم الاساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية — كما يقول اندرى جوليان — الذى اكد ان الاسطول المغربى اصبح آنذاك اول اسطول فى البحر الابيض المتوسط .

ونفتح هنا قوسا صغيرة لنؤكد ان هذه الروح القانونية نجدها متبلورة فى مواقف المغرب الذى كان يقف دائما فى صف الشعوب التواقة الى التحرر كشعب الولايات المتحدة الذى كان المغرب اول دولة اعترفت باستقلاله فى العالم ايام السلطان محمد بن عبد الله المحدث الفقيه السلفى (المتوفى عام 1204 هـ) الذى كانت دول اوربية تدفع لاسطوله جزية سنوية لحمايتها من القرصنة فى البحر الابيض المتوسط كما برهن عن روح دولية اكد المؤرخ والحقوقى الفرنسى

43) زهرة الآس للجزنائى ص 33

الكبير جاك كايى انه سبق بها ما عرفتـــه اوربـــا فى العصر الحـــاضر .

وكانت هذه الفترة التى استمرت ازيد من ثلاثة قرون اروع فترة فى تاريخ وحدة المغـــرب العربـــى تفتقت خلالها معالم الحضارة ومراسم العمارة وبدائع الفن انضافت الى قوة التخطيط الاجتماعى الذى تبلور فى تأمين السبل الصحراوية والتفجر الديمغرافى وتكاثـــر المارستانات وتزايد المـــدارس والاحيـــاء الجامعيـــة وانطلاق مصانع المراهم والادهان والاكحال (44) ولعل من ابرز مظاهر هذا الازدهار آخر ايام بنى مرين القوة الشرائية للنقود حيث لاحظ ابن بطوطة انها كانت تعدل فى المغرب ثلاثة اضعافها بمصر وبالرغم من النكبات التى بدأت تترى على المغرب بعد نكبـــة « الفردوس المفقود » فان المنصور السعدى استطاع اواخر القرن العاشر الهجرى فى معركة « وادى المخازن » ايقاف غزو البرتغال للشواطىء المغربية مع تقليص النفـــوذ الاستعمارى البرتغالى فى البحر الهنـــدى والخليـــج العربى كما كان اسطوله قبل ذلك رادعا للصليبيين فى سواحل الشام وفلسطين وصعقت اوربا بعد الهزيمة النكراء التى الحقها المغرب بالبرتغال الـــذى فقـــد استقلاله من جراء هذه الضربة ازيد من ستين سنـــة فصارت الدول الغربية تخطب ود السلطان السعدى واقترحت انجلترا عليه التعاون لتأسيس كوندومنيوم الهند ونفق الدينار الذهبى المغربـــى على الصعيـــد العالمى وتصاعد التصنيع وخاصة تكرير السكر الذى اصبح البلاطان الفرنسى والانجليزى يتنافسان فـــى اقتنائه كأجود ما ينتجه العالم وبعث المغرب تقويـــة لمبادلاته مع اوربا عملاء للدعاية لمنتجاته كما شارك فى المعارض الدولية كمعرض باريز عام 1285 هـ وحمى الصناعة الاهلية من المزاحمات الاجنبية وبذلك برهن فى شتى المجالات على تساوقه مع ما يستجـــد مـــن معطيات الحضارة بأوربا وقد عرف المغـــرب انظمـــة اقتصادية واجتماعية سبقت الاحـــداث والكشـــوف الاوربية فقد منحت الدولة مثلا القروض للدور التجارية لجلب المحاصيل اعوام الجفاف وبيعها بأثمان فى متناول الشعب كما كانت تتخذ كل الوسائل لالغاء ما يزيـــد على الاعشار والزكوات من مكوس وجبايات تخفيفا لوطأتها على الشعب وعلى اقتصاديات البلاد ولعـــل المغرب كان من اكثر الشعوب ايمانا بفعالية العمـــل كراس مال قبل ظهور نظرية كارل ماركس التى يعتقد انصار الاشتراكية والشيوعية بأنهـــا مكسب جديـــد للانسانية فقد اكد ابن خلدون فى تاريخـــه (45) ان « الكسب هو قيمة الاعمال البشرية » فلذلـــك لاحـــظ ماسينيون فى احصاء قام به عـــام 1924 للصناعـــة المغربية (46) ان عدد رجال الحرف فى المدن المغربية يعادل نصف عدد السكان كما اعترف المؤرخون الاجانب بأن نظام الحناطى عندنا وهو اشبه بما عرف اخيرا فى ايطـــاليـــا (système des corporations) كان يعمل فى اطار من الحرية الكاملـــة لم يفسد الا باحتكاكه بنظريات اوربا وقد امتاز الانتاج الصناعى المغربى بجوده نادرة فتحت له منافذ فى اوربا الى آخر القرن الماضى ويكفى دليلا على ذلك قطن المغرب الذى كان فيه نوعان معروفان فى اوربا « سى ـــ ايسلاند » لهما سدى حريرى طويل من الطراز الامريكى وقـــد تساوق مع ازدهار التصنيع ازدهـــار الفلاحـــة حيث بلغت السوائم وحدها خمسين مليون رأس من الغنم والمعز ستة ملايين رأس من البقر (47) ويرجع التفجر الديمغرافى بالمغرب لقلة الوفيات ولارتفـــاع معـــدل الاعمار الى ما بين 65 و 70 سنة فى الحواضر ومائة فى الاطلس بفضل انتشار المارستانـــات والملاجـــىء الصحية وخلو المجتمع الاسلامى من امراض العصر الناتجة عن الخمور او الزنا مثل الامراض التناسلية التى عرفت بالمغرب بالامراض الاسبانية او الفرنسية)

اما فى الحقل الجامعى فقد احتفل المغـــرب منـــذ سنوات بذكرى مرور احـــد عشر قـــرنا على تأسيس جامعة القرويين التى مافتىء المؤرخـــون الغربيـــون يعتبرونها اول مدرسة فى الدنيا » لا تزال قائمة الى الآن كما اعتبروا مدينة فاس فى افريقيا اشبه بأثينا عاصمة الفكر بأوربا واعتبرهـــا المشارقـــة انفسهم وخاصة منهم العراقيين كبغـــداد المغـــرب (48) اى

44) المعجب لعبد الواحد المراكشى ص 177
45) م 1 ـــ ق 3 ص 686 و 709 طبعة بيروت
46) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم 49 ـــ 50
47) كودار صفحة 188
48) المعجب للمراكشى

كعاصمة للغرب الاسلامى بالنسبة لدار السلام فى حاضرة الخلافة وهكذا امتاز المغرب بمدارسه الرائعة التى هى احياء سكنية للطلبة كما امتاز بمعاهد تقنية فى القرن الماضى كمدرسة المهندسين (49) ومدرسة المدفعية (بالجديدة) ومدرسة الفنون وتعزز هذا الانبعاث الفكرى بايفاد بعثات من الطلبة الى الخارج لاستكمال معارفهم العلمية والتقنية كما تعزز نتاج العقول بمطبعة حجرية نشرت مئات المخطوطات العربية المختارة من بين آلاف المخطوطات النادرة المكدسة فى المكتبات العامة والخاصة بالمغرب .

واذا كان للشعوب والامم مجال يجب الانصراف اليه تعزيزا للكيان الوطنى ودعما للحضارة القومية فهو هذه المجموعة من المجالات التى تستلزم تخطيطاتها الرصينة درجة عليا من التقدم الفكرى والسمو الاجتماعى والتطور التقنى بالاضافة الى الكفاية الاقتصادية ولذلك عمد الاستعمار — كما يقول اندرى جوليان — الى التعجيل بانهيار المغرب اقتصاديا للسيطره عليه سياسيا ففرضت فرنسا حمايتها عام 1912 م عن طريق القروض والدبلوماسية المالية ولذلك وجب ان تستفيد نهضتنا الجديدة من هذه العبرة فتتلافى كل استرهان لمقوماتها وتوجه تخطيطها الى دعم سياستها الوحدوية العربية فى الاطار العالمى عن طريق تراثها الطبيعى فلو ان العرب استطاعوا خلق وحدة اقتصادية حقيقية تحتجز الثروات وخاصة البترول وارصدة البنوك ومختلف اوجه الاستثمار لتوفر لدينا اكبر ضغط سياسى على الغرب الذى ما زال يستنزف قوانا الحيوية ويجرح كرامتنا بمكايده ومن مظاهر حضارتنا الفكرية التى يجب ان نذاب متكاتفين شرقا وغربا على صونها ودعمها لربط الماضى بالحاضر مكانة اللغة العربية التى كان نفوذها فى العصور الوسطى بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية كان يوقن بأنها هى الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب — كما يقول جورج ريفوار — « وقد انطلق المنهاج العلمى اول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية فى الحضارة الاوربية » بهذا اعترف الاستاذ ماسينيون الذى اكد « ان اللغة العربية اداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولى وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهرى للسلام بين الامم فى المستقبل » فلا يمكن اذن لاية نهضة عربية حديثة ان تكتمل دون ان تستعيد لغة الضاد مكانتها المرموقة فى المحافل الدولية علميا وتقنيا وحضاريا — ولنقصر نظرنا على مثال واحد يبرز مدى اسهام المغرب العربى فى دعم لغة الضاد فهذا الشيخ مرتضى الزبيدى امام اهل اللغة فى القرن الثانى عشر يتلمذ لابى عبد الله محمد بن الطيب الشرقى الفاسى (المتوفى عام 1170 هـ) فى اكبر موسوعة لغوية فى العصر الحديث « هى تاج العروس من جواهر القاموس » (كما يتلمذ لمحمد الحسنى البليدى الجزائرى (المقولات العشر للدكتور حقى) وقد كان للاستاذ المغربى اثر عميق فى تكوين تلميذه المصرى حتى انه لا يمر مشكل الا واستند الزبيدى فى حله الى شيخه الذى كان اللغويون يصححون المعاجم من املاءاته وتحليلاته كما فعل ابن التزاز البربرى حيث صحت عليه اللغة فى القرن الرابع الهجرى مع صاعد العراقى اضف الى ذلك ان الفكر المغربى قد طعم المعجم العربى بطائفة من المصطلحات النابعة من مصادر الاشتقاق العربية الاصلية (50) والتى اكتملت بها مجالى الحضارة العربية فى الادارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران وقد استعرضنا جوانب من هذه المظاهر فى كتابنا « تطور الفكر واللغة فى المغرب الحديث » الذى هو عبارة عن سلسلة محاضرات القيناها فى القاهرة باشراف معهد الدراسات العربية العليا فعناصر التكامل هذه لا ينبغى ان تخلق فى حضارتنا العربية ثنائية متنافرة الطرفين بل كيانا متساوق الاجزاء ينطلق من المفهوم العلمى العربى الخاص الى المدرك العلمى الانسانى العام فى تجاوب يحفظ للكيان العربى عالميته التى ظلت طابعه البارز طوال القرون الوسطى الى العصر الحديث وقد فجر الاستعمار بين الاخوة فى الشرق والغرب هذه الثنائية الانفصالية التى ما زلنا نعانى من ويلاتها الامرين فى

---

49) المجلة الاسيوية المجلد العاشر ص 152 .

50) راجع بعضها فى المستدرك على المعاجم العربية لدوزى وبعضها الآخر فى كتابنا « تطور الفكر واللغة فى المغرب الحديث » .

مجانباتنا الهامشية التي تنسينا احيانا عمق المشاكل المصيرية وحتى في ادق مجالات المعرفة كان للمغرب النصيب المرموق فقد استطاع ان يسهم حتى في تكييف الفن المعماري العالمي بروائع ما زالت قائمة الى الآن حيث تجلى ابداع الموحدين منذ القرن الخامس في روعة وفخامة مرصد الخالدة او الخيرالدة (Geralda) باشبيلية ومسجدي حسان بالرباط والكتبية بمراكش كما امتاز الفن المريني في القرن الثامن برقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرصنات والترخيمات ونقوش الخشب والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات والجدران بالزليجيات ورغم اتجاه الفن المعماري منذ القرن العاشر الى هندسة الحصون والقلاع لمواجهة الغزو الاستعماري الاوربي فقد ظل ينافس اوربا في التجديد حيث لم يكن قصر «الرياض» بمكناس يقل روعة عن قصر « فرساي » بفرنسا وهكذا تبلور في الفن المغربي طابع خاص اضفى على الحضارة في الشق الغربي للوطن العربي لونا جديدا شكل احدى لبنات انبعاث الانسانية الفكرى منذ العصور الوسطى

ومن هذه العجالة يتجلى انه اذا كان المغرب العربي قد حقق تطورا رائعا في مجالات الفكر والحضارة المختلفة فما ذلك الا بفضل تساوق النشاطات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين شقي العروبة فابلغ الروابط واعمقها قد استوثق بين الشرق العربي والشمال الافريقي والاندلس على يد رسل الفكر الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحدانا في موجات غامرة كل عام للحج او الدج وكان لهذا التبادل مظاهر شتى تبلورت في وفرة الوافدين من علماء المشرق على ملوك المغرب حماة العلم والفكر امثال المنصور السعدي (51) الذي احتضن بلاطه رجالات افذاذا من الحرمين والقدس ومصر والشام والعراق والهند وكان افصح جواز يقدمه المواطن المغربي او المشرقي في الحدود المطاطة هو اسلامه وعروبته فكانا يستيقضان ويستسفران في الحواضر العربية والاسلامية شرقا وغربا دون ميز يتبوآن هنا وهناك المناصب السياسية والدبلوماسية والعلمية فلم يكن للمواطنة الضيقة اى اثر في الحيلولة دون انبثاق هذا الشعور الفياض بالوحدة التلقائية النابعة من وحدة الدين واللغة والتاريخ والمصير وقد ظل اقطاب الفكر المغربي ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات العلمية ووجوه النظر في مختلف المجالات التقنية باطراد ووثوق كما عرف الشرق كيف يقدر في شخص زملائه في الغرب الاسلامي حرية الفكر ونزعة التجديد ولعل ما لاحظه المقرى وقبله ابن خلدون من فروق بين الشقين في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية يرجع الى انطباع الشرق بالعمق الكلاسيكي في ملكة العلوم واصطباغ الفكر المغربي بالوان من البحث جديدة تحت تاثير التفاعلات مع الغرب ومن بين المغاربة الذين كان لهم ضلع قوى في دعم هذا التبادل الثرى بين شقي العروبة نجتزىء بالاشارة الى بعض ممن عاشوا في العراق امثال :

1 ــ جمال الدين محمد بن ابى بكر البغدادى اصله من قصر كتامة وهو صاحب الوتريات وقد ورد على مراكش عام 655 هـ ثم للمرة الثانية عام 663 هـ (الاعلام للمراكشى ج 3 ص 152) .

2 ــ محمد بن احمد بن ابراهيم البغدادى الفاسى المتوفى بفاس عام 546 هـ (تكملة الصلة لابن الابار ج 2 ص 193 الذيل والتكملة لابن عبد الملك ج 4)

3 ــ ابو الحكم عبيد الله (او عبد الله) بن المظفر المريني المغربي كان طبيب المارستان بالعراق ايام السلطان محمود السلجوقى (وفيات الاعيان ج 2 ص 307) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهانى (قسم المغرب تونس 1966 ص 289)

4 ــ عبد الله المراكشى الهنتاتى جمال الدين فوض الله عمر البغدادى المعروف بالمجرد توفى عام 795 هـ (الاعلام للمراكشى ج 6 ص 102 مخطوط)

كما تتلمذ للغزالى صالح بن حرزهم الفاسى (انس الفقير لابن قنفذ ص 12) وابن حنين الكنانى المتوفى

---

51) راجع بحثنا حول رسل الفكر بين الشرق العربي والمغرب العربي في مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس 1387 ــ 1967 .

* خصصنا العراق الشقيقة بالذكر لان هذه المحاضرة اعدت للمؤتمر الدولي للمؤرخين الذى انعقد عام 1973 ببغداد .

بفاس عام 569 هـ (الجنوة ص 304 و 322) وعبد القادر الاندلسى التطوانى التبين المتوفى عام 566 هـ (تاريخ تطوان ــ لمحمد داود ج 1 ص 74)

اما العراقيون بالمغرب فقد الفت فى شانهم المصنفات منها « العراقيون الحسينيون بالمغرب » لمحمد هاشم زيان العراقى (فهرس الفهارس ج 1 ص 246) «والشيعة العراقية بالمغرب» لاحمد بن عبد الوهاب الوزير الفسانى « ومطلع الاشراف من الشرفاء الواردين من العراق » لعبد السلام القادرى .

كما شارك مغاربة فى كفاح الشرق ضد الاستعمار منهم :

1 ــ يوسف بن دوناس الفندلاوى استشهد فى حرب الصليبيين فى الشام عام 543 هـ (معجم البلدان ج 6 ص 401) .

2 ــ العباس بن احمد الفاسى استشهد فى الحروب الصليبية بالشام عام 595 هـ (الجنوة ص 278)

3 ــ يوسف بن محمد بن عبد الله البلوى المالقى المتوفى عام 602 هـ غزا مع صلاح بالشام (تكملة ابن الابار ص 737 / صلة الصلة لابن الزبير ص 217) .

4 ــ محمد الجيلانى السباعى المراكشى حارب الفرنسيين بمصر (عجائب الآثار للجبرتى ج 3 ص 44 ــ الاعلام للمراكشى ج 5 ص 144)

فهل يمكن لاية وحدة ان تقوم على غير هذه الدعامة من التكامل بين اجزاء العروبة وهل يتأتى لنهضة عربية رصينة ان تنبثق فى العصر الحديث دون الارتواء من هذا المعين الصافى الذى عكرته ولا تزال رواسب وذيول التخلف الناتج عن انفصال اجزاء الوطن العربى بعضها عن بعض ردحا طويلا من الزمن تحت سنابك الكائدين . وهنالك مظهر آخر لحضارة المغرب يتجلى فى رسالتها فى افريقيا واوربا وامريكا الجنوبية فالمغرب يحتل موقعا ممتازا فى القارة الافريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة ولكن هذا الوضع المحظوظ فى قلب العالم الغربى لم يفت فى اعضاد روح المغرب الشرقية التى عززتها وشائج شتى وطبعها الاسلام والعروبة بميسمها النهائى .

ان المغرب الذى يتحلى منذ ازيد من الف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب

ويقبض المغرب ــ بفضل طنجة التى كانت عاصمته الدبلوماسية ــ على مقاليد غربى المتوسط بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقى ولذلك فان هذين الطرفين العربيين الذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة فى الوضع الدولى الراهن لا بد ان يلعبا دورا مهما فى حوض المتوسط الذى لا يمكن ان يتم فيه شىء بدون مساهمة ــ ترتكز على المساواة والسيادة ــ من طرف جميع الاقطار العربية التى تمتد حلقاتها من طنجة الى دمشق على طول ثلاثة اخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم ان تفرض وجودها على الافكار الغربية قبل اليوم .

وبلغ اشعاع الفكر العربى عن طريق المغرب اقاليم افريقية شاسعة تمتد الى تخوم النيجر جنوبا وحدود مصر شرقا فكان المغرب محور ومصدر حيوية نابعة عن الاستقلال الذى كان يتمتع به فلم تعد هنالك دولة عربية مستقلة فى افريقيا غير المغرب بعد عام 1250م حيث سقطت مصر نفسها تحت سيطرة الاتراك فظل المغرب يواصل طوال الف عام حمل مشعل الحضارة العربية كولد بار للشرق العربى الرائد موقنا بأن الانتماء للشرق هو الميزة الجوهرية فى حضارتنا بل هو القوام الاساسى لكياننا ولهذا شكل المغرب كجزء قائم من هذا الوطن العربى نقطة وصل مع اوربا وقنطرة الى العالم الجديد وذلك ضمن التأثير الذى تركته حضارتنا فى الغرب والذى لم يكن لينصرم ــ ضمن تبادل موصول ــ لولا تلك الآفة الاستعمارية التى حولت من جراء مطامعها التوسعية مجرى تاريخنا فلو ان المغرب والغرب ظلا مستقلين سياسيا الواحد عن الآخر لامكنهما ان يعززا تقاربهما فى نطاق روابط حرة وتناسق قار لان التعاون لا يمكن ان يثمر الا اذا جرى على اساس من المساواة وتبادل احترام السيادة والكيان فحتى اذا سلمنا بما يزعمه بعض المؤرخين من وجود رواسب عاطفية ضد الاجنبى فى نفوس

المغاربة فان ذلك لم يكن ذاتيا وانما هو شيء عارض تمخض عن طغيان المطامع والدسائس الاوربيـــة فى البـــلاد .

ان النفسية العربية التى تجمع بين النبل والاريحية لا تنفعل انفعالا سيئا الا ازاء مـــا يمس بكبريائهـــا الوطنى ويهددها فى حريتها ورمز وجودها ففكرة الحرية عند الرجل العربى ليست معناها الفردية الانانيـــة وانما هى توقان طبيعى نزيه لتحقيق الذاتية وحفظها.

فلهذا تبلورت مدنيتنا فى اشعاع ثقافى ممتاز اكثر منها فى نفوذ مادى ومع ذلك فان قوة المغرب الماديـــة ما فتئت سائدة فى البحر المتوسط الذى كان رومانيـــا فاصبح طوال العصور الوسطى (بحرا عربيا) كما يقول م ماكس فنتيجو — بجزره وسواحله واساطيله ونهضة تجارته واضحت لغة القرآن هى اللغة الدولية للتجـــارة والعلم .

وقد اكد الكاتب الفرنسى المقتدر اندرى سيكفريد عضو اكاديمية باريس ان العرب غرسوا فى البحـــر المتوسط حضارة يانعة فطـــوروا الـــرى وادخلـــوا غراسات جديـــدة كالقطـــن والارز وقصب السكـــر والحوامض (وبسببهم فقد البحـــر المتوسط طابعـــه المسيحـــى) .

ان الاشعاع المادى للقوة المغربية فى المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لابراز الرسالة التى اضطلعنا بهـــا فى هذا البحر ومع ذلك فان الاسطول الموحدى الذى كان يضم اربعمائة قطعة ما لبث ان اصبح اول اسطول فى المتوسط (اندرى جوليان) على ان المغرب قـــد تزعم العالم الاسلامى والعربى فى هذا العصر مما حدا صلاح الدين بطل الحروب الصليبية الى الاستنجاد بالاساطيل المغربية لايقاف تقدم المسيحيين فى طريق الشام وما لبث هذا الاسطول ان ضم ازيد من ستمائة قطعة حربية ايام ابى الحسن المرينى . وسيادة العرب فى البحر المتوسط ظهرت بوادرهـــا ولمـــا تمـــر على انبثاق الاسلام بضعة عقود فقد غزا معاويـــة بعض جزر المتوسط بألف وسبعمائة سفينة ثم قامت الاوراش التونسية تعزز بانتاجها الجديد قوة الشرق العربـــى البحرية حيث صنعت فى بعض ايام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجرى عن حاسة استراتيجية مبكرة حيث ادرك عبد المومن بن على الموحدى اهمية جبل طارق الذى هو احد مفاتيح المتوسط فعمد الى تحصينه واحالته الى قاعدة امامية للدفاع عن افريقيا والانـــدلس وحتـــى فى خصوص فكرة الجندى المجهول نلاحظ وجود مـــا سمى فى الاندلس بالشهيد الغريب Le martyr inconnu فى المخاضة التى بـــين حصـــن بالمـــا Palma del Rio وهـــى الجـــرف Al-Jarf (الادريسى — النزهـــة ص 208) .

ان رسالة الحضارة المغربية الحق فى البحر المتوسط تتجلى فى مظهريـــن اثنين هما التـــأثير الاقتصـــادى والاشعاع الثقافى على ان الدور الاقتصادى نفسه لـــم يكن فى الواقع سوى نتيجة للنفوذ الادبى فسياســـة التسامح التى نهجها المغرب فى اغلب عصوره قـــد ساهمت فى توثيق الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى اصبحت المراسى المغربية فى سواحـــل المتوسط مصدر نشاط فياض فهى التى كانت الينبـــوع الاول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها مـــن مـــوانـــىء .

وقد اكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف المعجزة العربية (Le miracle arabe) ان الحكومة الموحدية كانت من اشد الحكومات احتراما للحرية وان الاندلس عرفت فى عهدها عصرا ماجدا تالق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التى سرى تيارها المنعش فى جنبات اوربـــا نعم ان من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب اوربا الغربية من ايطاليين وفرنسيين والمان وانجليـــز لذلك الانقلاب الفكرى العظيم الذى تفتق عن عصر النهضة وقد سبق لكوستاف لوبون ان قال نقلا عـــن العالم الايطالى ليبرى Libri (لولا العرب لتأخـــر انبعاث الآداب فى اوربا عدة قرون) .

نعم لم يتصل الاوربيون بالعلوم العربية الا عـــن طريق اسبانيا المسلمة التى برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية وما لبث هذا الاشعـــاع العربى ان غمر شعوب الغرب فبلغ كبريات العواصم ونشل مدن بيزا وبولونى ومونبيليى وسلامانك وافينيون وباريس من وحشتها اللاتينية حيث فتح امامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فنتيجو ورغم انهـــزام

الموحدين السياسى وعـودة الانـدلس الى حظيرة المسيحية ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد فى نظـر الغربيين حتى صارت باريس نفسهـا التـى اسس جامعتها الملك فيليب اوجست على اثر عودته مـن الشرق ــ تستمد من المغرب والشرق كثيرا من كشوفها

والذى يزيد هذه الظاهرة غرابة ان الفتوح العربية لم تكن حركة توسعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية وانما كانت رسالة تمدينية لا تهدف الى اى لون مـن الوان الادماج ومن مظاهر تسامح ملوك العرب ونزاهة وجهتهم ان جوهن ملك انجلترا عرض عام 1199 على آخر ملوك الطوائف وهو محمد الناصر ان يحميه ضد البابا فى مقابل جزية سنوية واعتناق الاسـلام مـن طرف انجلترا ملكا وشعبا ولكن الملك العربى رفض هذا العرض لان اريحيته ابت عليه استغلال الضائقة السياسية التى كان الانجليز يتخبطون فيهـا لحملهم على اعتنـاق الاسلام .

اليس اذن من الغريب ان لا يتجلى اثر الحضارة العربية فى ذهن الاوربـى المتوسط الا فى فتـوح اوقف تيارها شارل مارتيل فى بلاط الشهداء ؟

ومنذ القرن السادس عشر امكن للحضارة المغربية التى كانت الى ذلك التاريخ منحصرة فى البحر المتوسط ان تدخل الى امريكا الجنوبيـة بواسطـة الغـزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا اذ ذاك العالم الجديد فقد تلقت البرازيل مثلا طوال ثلاثة قرون متوالية تأثـير المدنية الاندلسيـة فاتسعت جميـع مظاهر الحيـاة الاجتماعية الامريكية بطابع مغربـى ينمـو ويضعف حسب الاصقاع فتقنعت المراة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت اسلوب حياتها كما فعلت المراة الصقلية المسيحية فيمـا حكاه الرحالـة ابن جبيـر تكييفا ــ يحذو حذو النعل بالنعل ما عهد فى الاندلسيات والمغربيات نعم اصبح الشىء الكثير فى البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا فى العصور الوسطى من اناقـة النساء الارستقراطيـات فى الحـواضر واتخاذهـن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبيـة الى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة فى البادية فبالرغم عـن اختـلاف الطقس استخدم الفلاح الامريكى اجهـزة واساليب الفلاحـة المغربية وانتشر استخدام الطواحين الهوائية فىمجموع انحاء امريكا الجنوبية مع جميع ما ينطوى عليه نظام الرى عندنا (السواقى والآبار الخ) وقد نقل المعمرون البرتغاليون الى امريكا جميع ما انجزه المغاربة فـى القسم الجنوبى من الاندلس من مصانع السكر والقطن الى مزارع الحوامض ودودة القز (كانت 3060 قرية اندلسية تتعاطى تربية دودة القـز) على ان اللغـة الاسبانية الامريكية تنم عن الآثار التى تركتها حضارتنا فى الميدان الثقافى والاقتصادى والاجتماعـى بامريكـا فالاصطلاح الامريكى فى المياه والسقى والرى معظمه عربى وكثير من الازهار والنباتات العطرية ما زالت تحمل فى اسبانيا وامريكا اسماء عربية اضف الى ذلك ما يمس (مودة) النساء من اسماء الحلى والمصوغات

والشبه وثيق بين المغرب وامريكا الجنوبية فـى ميدان الهندسة المعماريـة حيث لا تختلف فى البلدين اساليب البناء فى الكنائس والاديرة والمنازل والحمامات وقد تأثر الاصطلاح الامريكى ايضا بالمفردات العربية.

ويضيق المجال عن تعداد المناحى التى تجلت فيها آثار الحضارة المغربية والاندلسية فحتى اساليبالطبخ واسماء العائلات لا تختلف فى امريكا عنها فى المغرب ووحدة اصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية الى امريكا ورسالتنـا الحضاريـة اصبحت فى الظروف الدولية الراهنة اشد واقعية من اى وقت وابرز عنصر يجب ان تنطلق منه العناصر الحضارية الاخرى عند اخواننا فى الشرق لبناء صرح نهضتنا الحديثة .